دير الانبا انطونيوس

ترجع فكرة التنسك الى الطبيعة البشرية ، التى تخالجها أحياناً الرغبة فى الصدوف عن متاع الحياة المادية ، فيميل الانسان إلى الزهد فيها ، ويعتزل العالم ، ويخلو إلى الوحدة ، للعبادة والتأمل . ووجد التنسك عند الأمم التى كانت تؤمن بالبعث وخلود النفس ، فعرفه كثير من الشعوب والأقوام كالهنود والمصريين واليونان واليهود . والمصريون منذ فجر التاريخ كانوا يؤمنون بالبعث ، وكانوا يستعدون للحياة الأخرى ؛ وهم قد اعتنقوا المسيحية التى أشعلت مبادئها فى قلوبهم حب الزهد والتقشف . ثم أن ظلم الحكام من الرومان قد أذكى فى نفوس البعض منهم حب العزلة ، فهجروا المدن إلى الصحراء والكهوف .

وفى مصر ظهرت الرهبنة لأول مرة فى المسيحية . وبدأت بنظام العزلة المطلقة ، ثم تطورت إلى نظام الجماعات فى قلايات متقاربة . ثم انتهت بانشاء الأديرة . والقديس بولا يعتبر من السابقين فى انشاء نظام الرهبنة ؛ ولكن فكرة الرهبنة قد تركزت وتبلورت حول شخصية القديس أنطونيوس الذى يعتبر أبا الرهبانية .

ولد القديس أنطونيوس عام ٢٥٤م ، فى بلدة كوما (فمن العروس) ، بمركز الواسطى . وكان من أسرة غنية ، وتلقى تربية دينية . ومات أبوه وهو فى سن العشرين ، فقام بتدبير أملاكه بعض الزمن ؛ ولكن سرعان ماتملكه حب العزلة والتنسك ، فباع أملاكه ووضع أخته مع جماعة من المتبتلات ، وفى سنة ٢٨٥م خرج إلى بسبير بين اطفيح وبنى سويف ، فى المنطقة التى شيد عليها دير المعنون ، وعاش هناك عشرين سنة ؛ واجتمع حوله بعض الأتباع والمريدين . وفى سنة ٣١١ م ، فى عهد اضطهاد الامبراطور مكسمنيوس للمسيحية ، انحدر إلى المدن فى رهط من رهبانه ، لتشجيع المضطهدين . وزار

الاسكندرية ، وتحدى حاكم المدينة علنا ، ولم يتعرض له أحد بسوء ؛ إذ كان عهد اضطهاد المسيحيين قد آذن بالزوال . ثم أراد أن يعيش فى عزلة مطلقة فانطلق فى الصحراء الشرقية حوالى سنة ٣١٥م ، واستقر فى جبال القلالة الجنوبية ، قرب نبع ماء ، على بعد أميال قليلة من ساحل البحر الأحمر ، وعاش فى مغارة بقية حياته . فتبعه إلى عزلته بعض المتقشفين ، وأقاموا على مقربة منه فى قلايات الجبل . ولما بلغ انطنيوس المائة من العمر خرج إلى المدن لكى يدحض مفتريات الاريوسيين ، وكان فى هذا معاوناً للبطريك اثناسيوس . ومات القديس أنطونيوس فى سنة ٣٥٩ م ولا يعلم أين دفن .

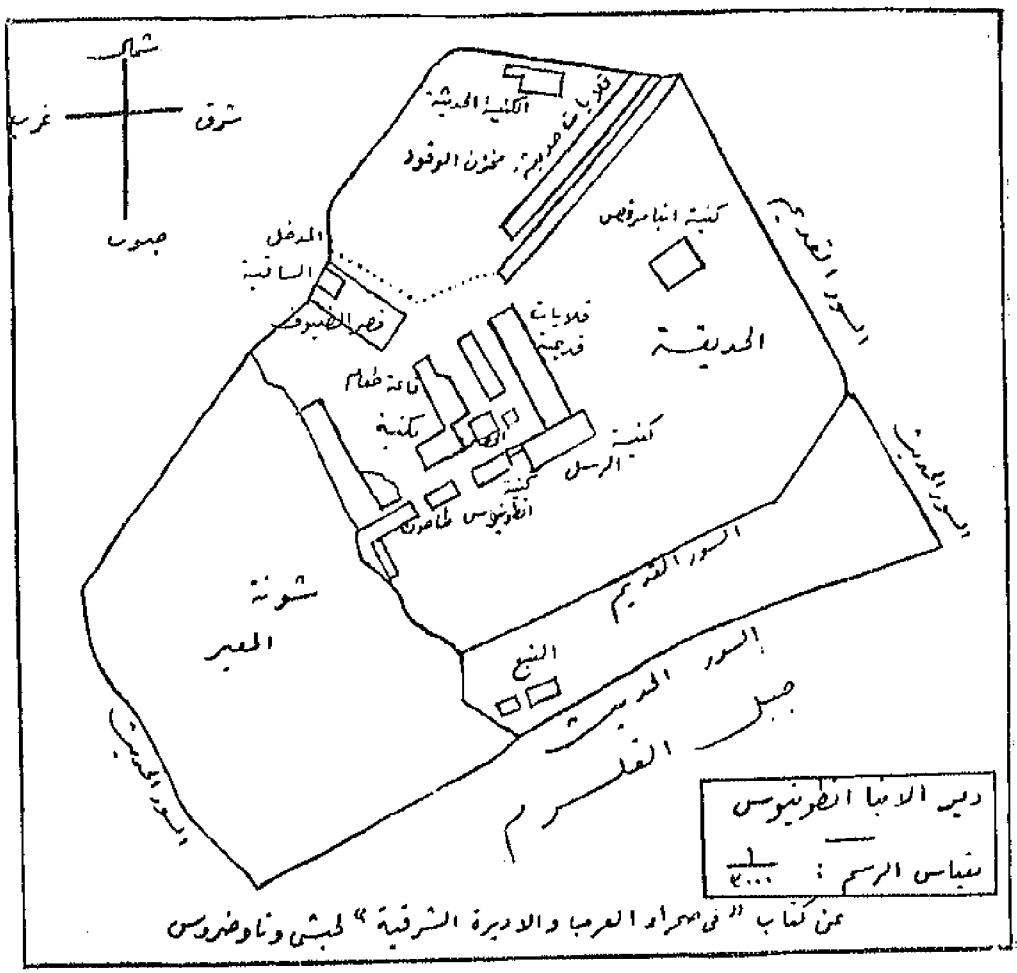

عن كتاب " فى صحراء العرب والاديرة الشرقية " لحبشى وناوضروس

دير الانبا أنطونيوس

ولا يمكن بعد تحديد وقت إنشاء دير أنطونيوس ؛ وفى تاريخ الرهبنة غالباً ما كانت وفاة قديس مدعاة لتأسيس كنيسة أو دير لتخليد ذكراه .

وأبو صالح الأرمنى يذكر أن إنشاء دير أنطونيوس كان بعد وفاة القديس بزمن قليل . وكانت مساحته فى أول الأمر لا تتعدى الثلاثة أفدنة ؛ وكان يحتوى على كنيسة واحدة وبعض الأبنية التى يحوطها سور ؛ وكان يتعرض أحياناً لغارات البدو . والأمبراطور جستنيان كان قد أسكن بعض الرهبان الملكيين فى دير أنطونيوس فى النصف الأول من القرن السادس للميلاد فقاموا بتجديد بعض أبنيته وأسواره . ولا يعرف بالضبط هل ظل الرهبان الأقباط بالدير ، أم بقوا مع الملكيين . وعلى كل حال فان أبا صالح الأرمنى وجد الدير فى يد الأقباط عندما وضع كتابه ، فى أوائل القرن الثالث عشر ومعلوماتنا عن الدير قليلة ، حتى العصر الحديث . ونعلم أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، قد خالف الرهبان قواعدهم ، واتخذوا لهم من البدو خدماً . ففى إحدى ليالى سنة ١٤٨٤ ، فتك الخدم بأغلبية الرهبان ، ثم رحلوا عن الدير . وظل الدير لفترة حوالى سبعين سنة ، نهباً للبدو الذين كانوا يحلون به ويرحلون عنه وقتما شاؤوا . وظل الأمر كذلك حتى تولى البطريركية غبريال الثامن ، فأصلح الدير ، وأقام فيه طائفة من رهبان وادى النطرون (١٥٥٠ — ١٥٦٠) . وإلى ذلك العهد يرجع الكثير من معالم الدير فى حالته الراهنة ، إلا أنه لم يستعد نشاطه السابق ؛ فعصر التنسك ، الذى كان سائداً فى القرنين الرابع والخامس للميلاد ، كان قد انقضى ، ولم يعد يصبح رهبان الصحراء قديسين .

وفى هذا الدور من الاضمحلال بدأ عهد زيارات الرحالة للدير . فمن الذين زاروه فانسلب فى سنة ١٦٧٢ ؛ وكوبان فى سنة ١٦٨٦ ؛ وسيكار فى سنة ١٧١١ . وبوكوك فى سنة ١٧٤٣ . وهؤلاء الرحالة قد أفادونا بأن الدير لم يكن فى حالة مرضية ، وكان يتعرض أحياناً لغارات البدو ؛ وأبنيته لم تكن نظيفة ، وبعضها كان يهدد بالسقوط .

وبعد منتصف القرن الثامن عشر يدخل الدير فى عهد اصلاح وتجديد

بواسطة بعض أغنياء الأقباط . فمثلا لطف الله شاكر قد أعاد بناء كنيسة الرسل فى سنة ١٧٧٢ : وابراهيم الجوهرى جدد الساقية وأصلح أسوار الدير فى سنة ١٧٨٣ ، التى أثبتت فائدتها فى فترة الفوضى التى سادت مصر فى نهاية الاحتلال الفرنسى . ولكن سرعان ما استتب الأمن فى الصحراء الشرقية بعد سنوات قلائل من حكم محمد على .

وفى سنة ١٨٥٤ بدأ عصر ازدهار لدير أنطونيوس ؛ فلما أصبح رئيس دير أنطونيوس البطريرك كيراس الرابع ، أعاد إصلاح الدير ، فوسع مساحته حتى بلغت ثمانية عشر من الأفدنة ، وجدد الأسوار ، وأنشأ قلايات جديدة ، وهكذا . ويقال إن سعيد باشا كان قد استدعى البطريرك كيرلس الرابع لتسوية خلاف نشأ بين الحبشة ومصر بسبب الحدود ؛ فاعتذر كيرلس عن ذلك لانشغاله بإصلاح الدير ؛ فأخذ الوالى على نفسه إكمال الإصلاح ، وسافر البطريرك إلى الحبشة .

دير أنطونيوس كما هو الآن

المسافر بالسيارة عن طريق رأس الزعفرانة ، بعد انطلاقه فى وادى العرابة ، ومقتربا من حافة جبال القلالة الجنوبية ، يلمح على بعد ، بقعة تعلو فيها أشجار النخيل ، ويحوطها سور طويل ؛ وإذا ما اقترب منها زادت له وضوحاً ، حتى يستبين المكان . ويشعر الدانى من الدير بالسكون الشامل ، وهو يعلم أن خلف الأسوار ، منازل عالية ، ومياها جارية ، ورجالا أحياء . ويستقبل

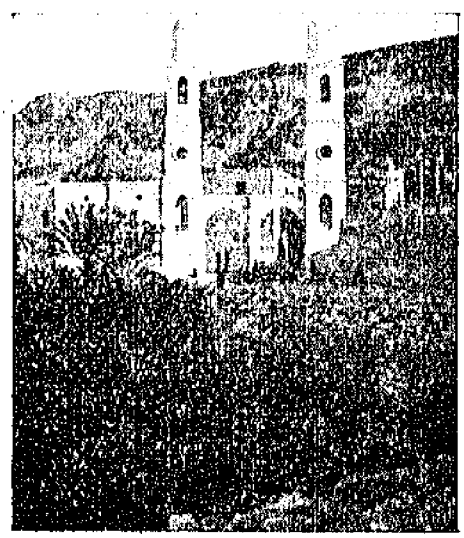

برجان بدير الانبا انطونيوس

رجال الدير الزائرين بالحفـــاوة والكرم . ولا يضم الدير الآن بين جدرانه أكثر من ثلاثين راهباً . وهو يمتلك حوالى ٨٠٠ فدان فى وادى النيل ، ومنها يصل القمح والمؤن مرة فى الشهر . ويستخرج الرهبان كميات من البلح وأحجار البناء ، ويرسلونها إلى وادى النيل . ومبانى الدير الحالية ، باستثناء كنيسة القديس أنطونيوس ، وحائط قديم يقع فى جنوب الدير ، لا ترجع إلى ماقبل إعادة بنائه فى الفترة بين سنتى ١٥٥٠ و ١٥٦٠ . ولنستعرض الآن أهم مبانيه .

كنيسة القديس أنطونيوس : هى أقدم وأهم بناء فى الدير من الوجهة الأثرية . وليس من الثابت بعد تاريخ إنشائها ، سواء فى حياة القديس أو بعد مماته . ويبلغ طولها نحو العشرين متراً وعرضها نحو العشرة أمتار ، وتنقسم من الداخل إلى أربعة أقسام : قسمين للمصلين ، وقسم للشيوخ ، والقسم الأخير وفيه الهياكل الثلاثة . ويعلو هذه الأقسام القباب . والقسم الأول يزين جدرانه بعض الرسوم على الحوائط ، وهى فى حالة سيئة ، وترجع إلى العصر البيزنطى المتأخر ، ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومن هـذه الصور نجد واحدة تمثل المسيح مع بعض الرهبان والملائكة ، وأخرى تمثل العذراء مع ثعبان موسى ، وثالثة تمثل مار جرجس فى زى ثياب رومانية ، ويمتطى جواداً ، ويطعن تنيناً . وبالقسم الثالث مذبح قديم ؛ وفيه مصابيح معلقة ، تعلوها بيضة نعام ، استعملت فى الأصل لكى تحول دون سقوط الجرذان فى زيت المصابيح . والقسم الرابع يحتوى على ثلاثة هياكل ، وهى مربعة تقريباً ، وتنتهى بفجوة فى الحائط الغربى ، ويتوسطها مذبح حجرى ، تعلوه قبة خشبية .

كنيسة بطرس وبولس أو كنيسة الرسل : شيدت على أنقاض كنيسة أخرى ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وهى تمثل الفن القبطى القديم ؛ وهى مربعة الشكل ومسقفة بتسعة من القباب ، ومقسمة إلى أربعة

أقسام . ومن الصور التى بها واحدة تمثل القديس أنطونيوس وخنزيره .

كنيسة مرقص : شيدت على أنقاض كنيسة أخرى ، فى سنة ١٧٦٦ ، وهى تقع بالقرب من السور الشرقى . وهى تشبه السابقة ، وتعلوها اثنتى عشرة من القباب .

القصر أو الحصن : عبارة عن معقل يلجأ إليه الرهبان وقت الخطر . شيد فى فترة إعادة تعمير الدير (١٥٥٠ — ٦٠) ، على أساس معقل قديم ؛ وتبلغ مساحته ٢٠٠ متر مربع ، وبه ثلاث طبقات ؛ وبابه فى الطابق الثانى ، حتى لا يسهل اقتحامه . ويصل إليه الماء بواسطة أنابيب من الفخار ممتدة من نبع الماء ، تحت الأرض . وفيما سبق كان يحفظ به بعض المخطوطات وبعض الآثار الثمينة . وفى أعلاه نجد كنيسة القديس ميخائيل ، حامى المعذبين من أجل الدين .

وتوجد بناية يرجع إنشاؤها إلى عهد إصلاح الدير فى القرن السادس عشر . وتشمل المكتبة فى الطابق الأول ، وتحتوى على ما يقرب من الألف مجلد ؛ وإلى جانبها نجـــد قاعة الطعام ، وطولها ١٥ متراً وعرضها ٤ أمتار ، ويتوسطها مائدة طويلة. ويتناول فيها الرهبان طعامهم فى يومى السبت والأحد .

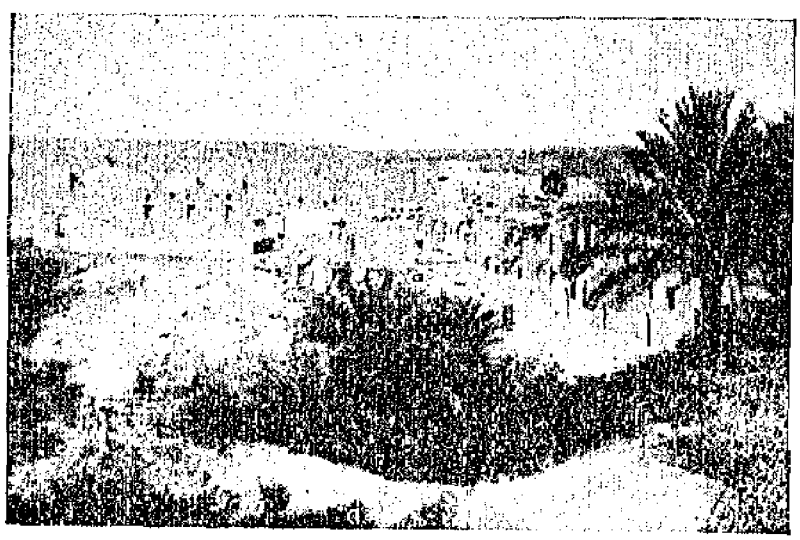

دير الأنبا أنطونيوس : بعض الفلايات والكنيسة الجديدة

وفى الطابق الثانى لهذه البناية نجد كنيسة العذراء ؛ ومن المحتمل أنها شيدت بعد سنة ١٧٣٠ .

القلايات : يوجد بدير أنطونيوس قلايات قديمة داخل السور القديم ؛ وأخرى حديثة فى خارجه .

وهى تتكون من طابقين ؛ وتحتوى على حاجات الرهبان ، كالفراش وبعض أدوات الطهى . وفيها يتناولون طعامهم أغلب أيام الأسبوع .

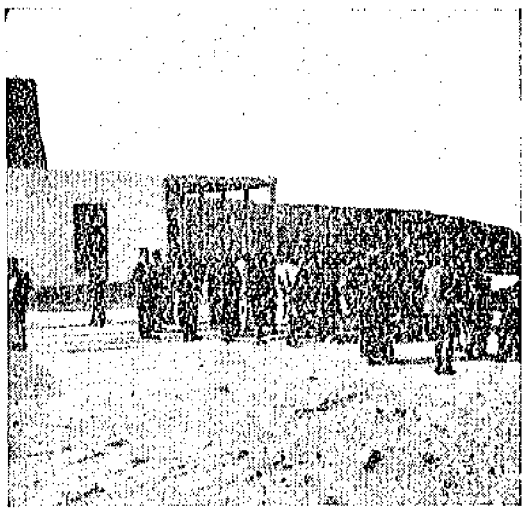

أعضاء الرحلة أمام قصر الضيوف

قصر الضيوف : قد أنشأه كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو يتكون من أربع غرف وبهو مستطيل ؛ ويجد فيه الزائر كل أسباب الراحة ، أثناء إقامته بالدير .

الحديقة : للدير حديقة واسعة ينمو فيها النخيل وأشجار الخوخ والمشمش والبرتقال والزيتون والخروب والكروم ؛ كما تنمو بعض الخضروات . ويستخلص الرهبان من العنب نبيذ « الأباركة » لإقامة الشعائر الدينية . وتروى الحديقة بسهولة ، لانحدار سطحها ، ولوجود عين المـــاء فى أعلى نقطة بها .

شونة المعيز : يقال إنه أثناء غياب كيرلس الرابع فى الحبشة ، بنى أمين الدير سوراً ضم صخرة خارج الدير ومعها مساحة واسعة من الأراضى ، كان يعتليها البدو لتهديد الدير . وتستخدم هذه المنطقة لحفظ الماشية وأغلبها من الماعز .

المدخل والساقية : يرجع الباب الحديدى الكبير إلى سنة ١٨٥٤ وفتح

لكافة الزائرين فى أوائل القرن الحالى . وكان دخول الدير قبل ذلك عن طريق «الساقية» التى تقع غربى المدخل الحالى ، والتى أنشئت فى سنة ١٧٨٣ . وهى عبارة عن اسطوانة خشبية تتحرك حول محور رأسى ، وبها حبل يمر على بكرة حديدية معلقة فى السقف ، ويتدلى الحبل لرفع الأشخاص . وتستعمل الساقية الآن فى رفع مؤونة الدير .

عين الماء : توجد فى جنوب الدير وهى التى عينت موقعه . وتنبع العين الرئيسية من مغارة طويلة كانت قبلاً خارج الدير ؛ وأدخلها كيرلس الرابع ضمن حدوده وتحتوى المياه على نسبة قليلة من الفسفور .

أسوار الدير : يتراوح ارتفاعها بين العشرة والاثنى عشر متراً ؛ ويزيد سمكها عن المترين . وسطح الأسوار غير مستو لعدم استواء سطح الأرض . وكان للدير أسوار قديمة فى القرن السادس للميلاد . ثم أصلحت أسواره فى منتصف القرن السادس عشر بواسطة البطريرك غبريال الثامن . كما أعيد إصلاحها على يد إبراهيم الجوهرى والبطريرك كيرلس الرابع ؛ وجعلت الدير الآن كالحصن المنيع .

حسن عثمان

بعض المصادر :

— حبشى وتاوضروس : فى صحراء العرب والأديرة الشرقية . القاهرة ، ١٩٢٩

Abu Saleh = Churches and Monastries of Egypt. trans. Evetts. Oxford, 1895.

Butler = Ancient Coptic Churches of Egypt. Oxford, 1884.

Coppin = Le Bouclier de l'Europe. Lyon, 1686.

Fedden, M. H. = A Study of the Monastry of St. Antony. Bulletin of the Faculty of Arts. May, 1937.

Pococke = A Description of the East. London, 1734.

Vansleb = The Present State of Egypt. London, 1673.